

القصور العباسية

بنى العباسيون العديد من القصور في كل من بغداد وسامراء والرقعة وقصر الأخيضر، الذي يعتبر مميزا لأنه بنى خارج المدن في الصحراء.

قصور الرقعة:

دلت التنقيبات الأثرية في مدينة الرقعة على وجود ثلاثة قصور واسعة، وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات شمال باب بغداد في الرقعة. ويوجد قصران يعودان لنفس الفترة أحدهما قصر البنات، حيث كانت مدينة الرقعة المصيف والعاصمة الصيفية للخلفاء العباسيين، الذين أرادوا أن لا تقل قصورهم عظمة عن القصور الفارسية الساسانية.

لم تقدم الدراسات التاريخية والأثرية دليلا قاطعا لاسم الخليفة الذي شيد هذه القصور، مما جعل من الصعب إطلاق أي اسم عليها، اذا اصطلح على تسميتها بالقصر أ- ب- ج. وسنتعرف على القصر (ب)، كونه أكمل القصور المكتشفة في الرقعة.

القصر ب:

يتألف القصر من أربعة أقسام، يحيط بها سور القصر المبني من اللبن تدعمه أبراج نصف دائرية مفرغة من الداخل، والسور مدعم في كل من زاويتيهِ الشرقية والغربية ببرج

دائري، والأبراج نافرة عن جدران السور، ويبعد كل برج من الأبراج نصف المستديرة عن الآخر مسافة /11/ متر، وعلى الأغلب أن سور القصر كان مدعماً بزوايا الأربعة بأبراج دائرية نافرة على غرار قصر الأخيضر في العراق، وسور القصر مبني من اللبن على أساس حجري، وقد بلغت سماكة جدار السور /155/ سم، وللقصر عدة مداخل مدعمة بأبراج دفاعية تليها ممرات مقببة وغرف وإيوانات.

يضم القصر أربعة أقسام معمارية وهي:

1- دار الضيافة.

2- قسم الشؤون العامة.

3- الدور الخاصة وتتشابه من حيث التصميم والبناء.

4- الحدائق.

يشكل القصر بأقسامه الأربعة مستطيلاً ينحرف قليلاً في الجهة الشمالية أبعاده /168-74/ متر، وتتقدم الحديقة الرئيسية مبنى القصر من الجهة الشمالية، وذات شكل مستطيل أبعاده /68.50-50/ متر. **للحديقة:** ثلاثة أبواب فتح كل منها في وسط الجدران التي تحيط بها، والمدخل مدعم بدعامتين من اللبن، وهذه الدعامات على شكل مربع تكون بمثابة عضائد استنادية لجوانب المدخل، وتؤدي المداخل الثلاثة عبر ممرات مرصوفة إلى باب القصر الرئيسي.

أما بالنسبة **لقسم الشؤون العامة:** الذي بنى في الجزء الغربي من القصر فهو يشتمل على دار كبيرة للضيافة، مؤلفة من أروقة وقاعات وممرات وباحة كبرى تحيط بها الأروقة، يبلغ عدد القاعات أربعة، تتصل ثلاثة منها عن طريق باب داخلي، والأخيرة تتصل مع المرحاض بواسطة باب داخلي، ولها باب آخر يطل على الرواق. دلت المكتشفات الأثرية في هذه الدار أنها كانت غاية في التنظيم والجمال يختلف عن بقية أقسام القصر، كما دلت كذلك على استخدام العقود والزخارف الجصية في زخرفة العقود والغرف.

أهم أجزاء هذا القسم هو **القاعة الكبرى** ذات الشكل المستطيل /12.50-7.50/ م، ويستدل من المكتشفات أن جدران هذه القاعة كانت مغطاة بالألواح الزجاجية، وهذا يعطي دليل على مدى الغنى والترف في قصور الرقة، التي احتلت مكاناً مرموقاً في العصر العباسي.

وتحيط بجانب القاعة غرف زينت جدرانها وجوانب أبواب الغرف، بمختلف الزخارف النباتية والهندسية البديعة التي تدل على الذوق الفني الرفيع.

يشتمل القسم الأخير من القصر على أربعة من دور السكن، وكل دار تتألف من فسحة سماوية يحيط بها عدد من الغرف، وتتصل هذه الغرف مع بعضها بواسطة ممرات داخلية، وكل دار مجهزة بحمام ومرحاض وقساطل للمياه وفوهات لتصريفه، وأرضية الغرف مغطاة بمربعات من الحجر موزعة بأشكال هندسية مختلفة. ويقسم هذه الدور الأربعة ممر مكشوف إلى قسمين متناظرين، رصفت أرضيته بمربعات من الحجر. دلت الكتابة الكوفية المكتشفة في أحد أجزاء القصر، والنقود التي عثر عليها، أن القصر يعود إلى أواخر القرن الثاني الهجري أي إلى زمن الخليفين: هارون الرشيد والمعتصم.

إن الأسلوب الإنشائي المتبع في القصور الثلاثة متشابه، وإن اختلفت الاتجاهات والمقاييس، ولكن من المؤسف أننا لا نستطيع التعرف على أسلوب التسقيف، وإن كانت العناصر المعمارية المبعثرة في أرجاء القصرين تدل على استخدام الدعامات والأعمدة الحجرية، في رفع الأسقف الخشبية التي تعلوها طبقة من الطين والقرميد، ولكن هذا لا يغني عن استخدام الأحجار الكلسية في بناء الأساسات وإطارات الأبواب الداخلية والخارجية.

تميزت الجدران الخارجية بالسماكة لتؤمن العزل الحراري للمبنى، كما أن استخدام الفناء الداخلي ومعالجته حققت نظرية التضاد العضوي والبيئي، وإن اشتمل القصر على أقسام يقوم كل منها بوظيفة خاصة، إلا أن تلك الأقسام مرتبطة عضوياً مع بعضها البعض بحيث تشكل نسيجاً معمارياً متكامل وظيفياً وجمالياً.

إن المقارنة بين القصور العباسية في الرقة وقصري الحير الشرقي والغربي المشيدان في العصر الأموي، توضح استمرار الأسس التي قامت عليها العمارة العربية في بناء القصور، وتؤكد استمرار العمارة العربية متطورة مع ضرورات العصر، كما تظهر تلك الصور مدى استفادة المعمار من وفرة له الطبيعة الجيولوجية للمنطقة من ناحية مواد البناء، ومدى تلاؤمه مع الشروط المناخية السائدة في تلك المناطق.

قصر الجوسق الخاقاني:

بعد أن استولى المعتصم على الحكم بمساعدة السلاجقة، أخذوا بالتدخل في شؤون البلاد مما أدى إلى نفور سكان مدينة بغداد العرب منهم، ومما دفع بالخليفة المعتصم إلى اتخاذ عاصمة جديدة

له في سامراء، وبنى في هذه المدينة قصرا واسع الأرجاء اسمه الجوسق الخاقاني، ويعتبر هذا القصر من أهم القصور العباسية التي ما زالت أقسام منها قائمة حتى الآن.

تم بناء القصر عام /221هـ- 836 م/ على مرتفع يشرف على الضفة اليسرى لنهر دجلة، وتوحي دراسة مخطط القصر وأسلوب البناء بأن القصر قد شيد بصورة ارتجالية نوعا ما، من حيث الخلط بمواد البناء والأبعاد والقياسات الكبيرة المستخدمة، فالقسم الأوسط منه يقوم على ساحة مربعة طول ضلعها /220/ م، ويتقدمه درج واسع من الرخام يؤدي إلى باب إيوان ضخم، يستخدم لعقد الاجتماعات العامة وتقام فيه حفلات الاستقبال الكبرى، يبلغ طول الإيوان /17/ م وارتفاع قبته /11/ م، ويلي الإيوان الرئيسي عدد من الغرف والباحات، تأتي بعدها قاعة العرش ذات الشكل المربع وتعلوها قبة كروية، وتلتقي معها أربع غرف مستطيلة الشكل، ينتهي كل منها بجدار متوسط معترض يشكل معها مخططا على شكل صليب.

ويضم القصر بالإضافة إلى هذه الأقسام أجزاء أخرى، منها ما هو مخصص للضيوف ومنها للحريم، ويحتوي على باحات واسعة وسرايب تحت الأرض يمكن اللجوء إليها أيام الحر، وكانت تستخدم أيضا لتخزين المواد الغذائية لرطوبتها، هذا بالإضافة إلى ميدان مخصص لسباق الخيل وبعض الألعاب الرياضية.

قصر الأخيضر:

يقع قصر الأخيضر على بعد /180/ كم جنوبي بغداد، وقد بني عام /161هـ- 778م/ وينسب بناؤه إلى عيسى بن موسى (أحد الولاة العباسيين)، ويعتبر هذا القصر مع قصور الرقة من القصور الحصينة والفريدة، وقد اختلف المؤرخون والباحثون في نسبته إلى العصر العباسي لكونه بني في الصحراء، والمعروف عن العباسيين عدم تفضيلهم سكن الصحراء مثل الأمويين.

يحيط بالقصر سور خارجي مستطيل الشكل أبعاده /175- 169م/، ويوجد مدخل في وسط كل ضلع من الأضلاع، وسور القصر مدعم بالأبراج نصف المستديرة، وأبراج دائرية الشكل في زوايا السور. ويلتصق ببناء القصر بالضلع الشمالي من السور، وتبلغ مساحته /9184/ متر مربع.

تقع البوابة الرئيسية في وسط الضلع الشمالي للسور ومدعمة بأبراج للدفاع، ويلي البوابة ممر مقبب وخلفه حجرة تعلوها قبة، وإلى اليمين واليسار دهليز طويل مغطى بقبو سريري، ويليه البهو الكبير المغطى بقبو مرتفع، وعلى اليمين واليسار غرف تستعمل كمخازن، ويقع المسجد خلف الغرف اليمنى، ويقع خلف الغرف اليسرى حجرات مسقوفة بأقبية، وفي نهاية

القبة الكبير دهليز يدور حول الفناء الأوسط وقاعة العرش، بحيث يفصل هذه المجموعة عن سائر أجزاء القصر، ومن هذا الدهليز وعلى محور الباب الرئيسي ندخل إلى ساحة الانتظار أو قسم الشؤون العامة، يلي هذا القسم قاعة العرش التي تحيط بها مجموعة من الغرف، كما يضم القصر إلى جانب المسجد وقاعة العرش وقسم الشؤون العامة، أربع مجموعات من الدور المرتبطة بالقصر.

ونجد في هذا القصر أقدم مثال على استخدام المقرنصات، وقد ظهر هذا الاستخدام في بناء مسجد القصر.

بنى القصر من اللبن والقرميد على أساس من الأحجار الكلسية المنتظمة الشكل، ويعتقد أن ارتفاع جدران القصر يبلغ /19م، تنتهي من الأعلى بزخارف معمارية على شكل أقواس تشبه حدوة الفرس.

إن أسلوب بناء هذا القصر متفق تماما مع أسلوب بناء فصور الرقة، ولا سيما من حيث مادة البناء، والأقسام التي يضمها، والملاحظ في القصور العباسية إعطاء الأهمية لقاعة العرش على عكس القصور الأموية، حيث أراد الخلفاء العباسيون تشبيه قصورهم بالقصور الساسانية الفارسية، التي اشتهرت باحتوائها على قاعات ضخمة للعرش تسمى (الطاق) ومن أمثلتها طاق كسرى في المدائن.

أما سبب وجود أربعة بيوت (منازل) في كل قصر من القصور الأموية العباسية يعود على الأغلب لزوجات الخليفة أو الأمير الأربعة. تتسم هذه الدور بأسلوب واحد في التصميم والبناء، ويكاد كل منها يستقل عن الآخر. كما أن تصميمات القصور متأثرة بالعامل الديني، إذ كان يراعى فيها تخصيص أجزاء منها كقاعات وحجرات لنساء وأهل البيت لحجبهم عن أنظار الغرباء من زوار القصر، وكان للرجال قاعات مقفلة تستعمل أيام الشتاء، ولهم إيوانات في الصيف بها مصاطب للجلوس، والإيوانات مفتوحة على البهو السماوي المكشوف لتأخذ عن طريقه الرطوبة والهواء النقي العليل صيفا.

شهد العصر العباسي بشكل عام ابتكارات معمارية وزخرفية أغنت العمارة العربية الإسلامية، وعلى الرغم من الأندثار الذي أصاب معظم المباني التي شيدت في هذه الفترة، فإن تخطيطها وأسلوب إنشائها يوضحان مدى التطور الذي وصلت إليه العمارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى.

المميزات والسمات العامة للعمارة العباسية:

أدى سقوط الدولة الأموية في دمشق إلى بداية عهد الدولة العباسية التي حكمت البلاد من بغداد، واحدة من أكثر المدن الإسلامية ثراءً. وتأثر رخاء العباسيين ببساطة الإسلام وأسلوب الأمويين في العمارة، وحضارات ما بين النهرين والحضارة الفارسية.

كما أن طبيعة المنطقة الجيولوجية والمناخية، فرضت أسلوب معماري خاص ساعدت على خلقه طبيعة مادة البناء المستعملة وهي اللبن والقرميد.

ساد في العمارة العباسية استخدام الأكتاف بدلا من الأعمدة كعنصر حامل للسقف، واستخدام الزخارف الجصية بدلا من الزخارف الحجرية التي كانت سائدة في العصر الأموي، وأغلب مساقط المباني كانت مستطيلة بدلا من المساقط المربعة.

واتسمت المساجد بالاتساع الشاسع، واختفاء العقود من المباني، فالسقف يرتفع مباشرة فوق الأكتاف. وبدأ ظهور القباب فوق الحراب في بعض المساجد، واستمر بناء المآذن مربعة الشكل على غرار المآذن المشيدة في العصر الأموي، ولكنهم بنوا عددا من المآذن الفريدة مثل مئذنة جامع سامراء وأبي دلف، وهي متأثرة إلى حد ما في بناء الزيقورا المشهورة في بلاد الرافدين.

أما بالنسبة للقصور، فقد تأثر العباسيون بنظام البلاط الفارسي حيث العظمة والأبهة، على عكس القصور الأموية التي اتسمت إلى حد ما بالبساطة والتواضع، فقد ضمت القصور العباسية قاعة للعرش مغطاة بقبة مسبوقة بإيوان مخصص للزوار العاديين، واتخذت قاعة العرش أهمية كبرى في القصور العباسية.

أحاط العباسيون مدنهم بعدد من الأسوار المدعمة بالأبراج الدائرية ونصف الدائرية، وجعلوا للمدينة عدة أبواب محصنة ذات مداخل منكسرة للتمويه وإمكانية الدفاع عنها بسهولة. كما شهد العصر العباسي ابتكار نمط جديد من العقود، وهي العقود المدببة ذات الأربعة مراكز، وكان أول ظهور لها في الرقة عام /772م، كما استخدموا الحنيات (الطاقات) الركنية لتحويل الشكل المربع إلى دائري من أجل إمكانية بناء القباب.

أما الزخارف فهي نفس العناصر الزخرفية التي كانت سائدة في العصر الأموي، إلا أن الكثير من التجديدات والتعديلات أدخل على هذه الزخارف. وساعد على تطوير الزخارف

استخدام الجص في الزخرفة بدلا من النحت على الحجارة، كما كثر استعمال الخزف والنقوش الخشبية.

ويمكن اختصار السمات العامة للعمارة العباسية بالنقاط التالية:

1- استعملت العمارة العباسية اللبن في بناء الجدران، والقرميد المشوي في العقود والقباب وكسوة الجدران.

2- انتشر استخدام الإيوان ذي العقد، كما انتشرت الأسقف المعقودة والمغطاة بالقباب.

3- استعمل العقد المدبب المرسوم من أربعة مراكز.

4- استخدم في بناء المساجد المخططات المستطيلة في العراق، بينما استعمل المربع في مصر.

5- استعملت الأروقة المزدوجة والمحيطة بصحون المساجد، كما ظهرت المآذن الملوية.

6- بنيت المساجد وكأنها حصون، فكانت لها جدران عالية المدعمة بالأبراج.

7- استعملت النقوش الجصية ذات المواضيع المختلفة نباتية وهندسية وحيوانية، كما شاع استخدام الخزف الملون في كسوة الجدران.

8- ظهرت السقوف الخشبية الملونة، وتعددت نماذج المباني بسبب امتداد الدولة الإسلامية.

د. عبير شدود